نظرية التكامل من وجهة نظر القرآن

تأليف: الشيخ مسيح مهاجرى

القسم الأخير

أشار المؤلف في القسمين الأول والثاني من موضوعه الى النظريتين المعروفتين لـ «تشارلزدارو ين» حول كيفية خلق الإنسان وسائر الموجودات الحية الأخرى، والى رأي القرآن الكريم ازاء هذه المسألة. كما قسّم الآيات الخاصة بخلق الإنسان الى عدة أقسام، وتحدث بالتفصيل عن مفهوم الإصطفاء مستشهداً ببعض الأمثال. واليكم فيما يلي القسم الأخيرمن الموضوع.

نقد و دراسة الاستنتاجات الأخرى:

اتضح لنا في القسمين الأول والثاني من البحث رأي القرآن الكريم ازاء كيفية خلق الإنسان. وسنحاول في هذا البحث نقد و دراسة الإستنتاجات الأخرى. وقد فضّلنا تناول استنتاج مخالف تماماً لاستنتاجنا من الآيات الخاصة بـ «خلق الإنسان»، أي الإستنتاج القائل بتأييد القرآن لنظرية التكامل.

و طبيعي ان دراسة هذا الإستنتاج، تشمل بقية الإستنتاجات الأخرى، مما تغنينا عن دراستها كلاً على حده.

والأشخاص الذين يريدون تطبيق نظرية التكامل على المفهوم القرآني فيما يتعلق بالخلقة، فإنهم وضمن ذكر بعض الشواهد الدالّة على أنّ الإنسان كلمة عامة، و آدم كلمة خاصة، يستنتجون من الآية ٣٣ من سورة آل عمران: «**إنّ اللّه اصطفى آدمَ ونُوحاً**

وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ...»: (بأنَّ آدم مَثّله كمثل نوح وأنبياء آل إبراهيم وآل عمران الذين تمَّ اصطفاؤهم من بين أُناس عصرهم، بمعنى انه أُصطفي من بين أُناس عصره، وهذا يعني أنَّ آدم لم يكن أول إنسان، وقد خُلِقَ بعد ظهور الإنسان. ومن هنا فان ادعاء القرآن بخلق النوع الإنساني من آدم ليس صحيحاً).

و يقول هؤلاء الأشخاص في مقام بيان سبب هذا الإصطفاء: (إنَّ اصطفاء آدم من بين معاصريه، جاء نتيجة لامتلاكه العلم الإلهي، و بالنتيجة فان تلك السلسلة من الآداب والتكاليف التي تعتبر فرعاً للحرية والإختيار فوِّضت الى آدم وأولاده و (بني آدم) مما أدى الى ظهور انسان متفكر ومسؤول).

لقد أجبنا عن هذه الشبهة عبر استنتاجنا من هذه الآية، ولتكميل الإجابة نستند الى تفسير الميزان للعلامة المرحوم الطباطبائي، فنفهم منه ان كلمة «العالمين» في آخر الآية تبيِّن ان نوحاً وآل ابراهيم و آل عمران لم يصطفوا من بين أُناس عصرهم فحسب، بل ومن بين جميع الناس السابقين واللاحقين. ولذلك يجب أنْ يكون اصطفاء آدم قدتمَّ ــ قهراً ــ من بين الناس عامة. ولما لم يكن قبله أحد، فإنه أُصطفي من بين أُناس عصره، أي أولاده (وفقاً لما قلنا مسبقاً) والذين جاء وا بعده.

وبهذا التوضيح؛ يرتفع الإشكال المذكور، لكن الإشكال الذي يخطر في ذهننا ازاء ادعاء هؤلاء الأشخاص هو أنه لوكان سبب اصطفاء آدم يكمن في توفر العلم الإلهي لديه، ليظهر بهذه الوسيلة انسان متفكر ومسؤول، فإنَّ هذا الأمر أصبح عملياً من خلال اصطفاء آدم من بين أُناس عصره. وطبقاً لادعاء أنصار نظرية التكامل، فإنَّ أبناء آدم خلقوا مسؤولين ومتفكرين خلافاً لأُناس عصر آدم، ولم تكن هناك حاجة لاصطفاء نوح و أنبياء آل ابراهيم وآل عمران عليهم السلام.

و على هذا الأساس فان انتخاب هؤلاء كان أمراً عبثاً، (حسبما يدَّعي هؤلاء)، في حين ان الله منزَّه عن القيام بعمل لا معنى له، كما أنَّ القرآن هو أجلّ من أنْ ينسب مثل هذه الأمور الى الله.

أما الإشكال فهو ان الإصطفاء الذي تصوره هؤلاء لن يقبل الإستناد الى القرآن إلاّ إذا كان حرف (من) قد ورد بدلاً من حرف (على) في عبارة (على العالمين)، لأنَّ الإصطفاء من بين الناس يتباين مع الإصطفاء على الناس، وان المقصود من الآية ليس ان الله اصطفى هؤلاء من بين معاصريهم، بل ان الله سبحانه و تعالى فضَّلهم على العالم أجمع.

إنَّ أنصار نظرية التكامل يلجأون في المبحث الخاص بارتباط الإنسان وسائر الموجودات الأُخرى من وجهة نظر القرآن الى عدة آيات لإثبات ثلاثة أُمور:

أولها: إنَّ الإنسان لم يخلق مستقلاً و من التراب في الوهلة الأولى، بل ظهر وفق خلقة تدريجية عبر تكامل سائر الموجودات الحية.

ومن جملة تلك الآيات، الآية (١١) من سورة الأعراف:

«ولقد خلقناكُمْ ثُمَّ صوَّرناكُمْ ثُمَّ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فَسَجَدوا إلاّ إبليسَ...».

و يستنتج هؤلاء من حرف العطف «ثم» في هذه الآية الشريفة انه كانت هناك فترة زمنية طويلة بين مرحلة الخلق والتصوير من جهة، ومرحلة التصوير والسجود من جهة أُخرى.

لقد أجبنا على الشبهة حول الفاصلة الزمنية الطويلة بين الخلقة من الطين والتصوير، ويمكن الإستفادة منها كذلك في الإجابة عن الفاصلة بين التصوير والسجود.

وهنا يشير هؤلاء الى الآية ٧ من سورة السجدة **«...وَبَدأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طينٍ»** و يقولون: كانت توجد هناك مرحلة بعد مرحلة الخلق من الطين، ولم يُخلق الإنسان من الطين فجأة.

كان من الأفضل لهؤلاء أنْ يعلنوا وجهة نظرهم بعد قراءتهم للآية الأُخرى التي تأتي بعد تلك الآية والتي تقول: **«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَه مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهينٍ»** ليفهموا المسألة التالية وهي ان هذه الآية الشريفة هي في مقام بيان كيفية خلق الإنسان الأول (آدم) مقابل البشر الذين جاءوا بعده، و تريد القول بأنَّ الله سبحانه وتعالى خَلَق الإنسان من الطين، وخَلَقَ بقية أفراد البشر عن طريق توليد النوع.

إذنْ فالحديث هنا لايتناول مراحل خلق الإنسان، لكي نبحث في بداية الخلق أوختامه.

إنَّ أنصار نظرية التكامل وقعوا في خطأ آخر عند استنتاجهم من مجموع الآيتين ٧ــ٩ من سورة السجدة، حيث يقولون: (إنَّ الآيتين ٧ ــ ٩ تبيِّنان في المجموع مراحل خلق الإنسان من التراب الى الإنسان الكامل، وإنَّ الآية ٨: **«ثم جعل نسله من سُلالة من ماءٍ مهين»** يجب أن تقصد ــ قهراً ــ سير الحياة في الأجيال البعدية).

ولبيان هذه الشبهة يلزم ملاحظة ماقلناه آنفاً بدقة، و ربط هذه الآيات الثلاث مع بعضها. ومثلما قلنا فإن الآيتين ٧، ٨ تبيِّنان كيفية خلق الإنسان الأول الذي خلق من الطين، و بقية أفراد البشر الذين خلقوا من النطفة. أما الآية ٩ التي تتحدث عن التسوية فانها تقصدهما معاً، وتريد القول بأنَّ الموجودين خلقهما الله ونفخ فيهما من روحه. و بديهي ان النطفة في بداية ظهورها وانعقادها تكون مجردة من الروح، لكن و بعد أنْ يتم تسويتها في داخل الرحم وتتخطى بعض المراحل، إذْ ذاك تُنفخ فيها الروح.

وعلى هذا الأساس فاننا غير مجبرين لتبرير الآية الثالثة حسبما يفسِّره أنصار نظرية التكامل.

والآية الأخرى التي يشير اليها هؤلاء هي آية ٥٤ من سورة الفرقان:

«وهو الذي خَلَقَ من الماءِ بَشَراً فجعله نَسَباً و صِهْراً، وكانَ رَبُّكَ قَديراً».

ولما كانت كلمتا «النسب» و «الصهر» تعنيان القرابة النسبية والسببية، فانهم يقولون: (عند ما خُلق آدم، فمع من كان يستطيع أنْ يُقيم علاقة نسبية وسببية عدا التراب؟ لذلك يجب القول بأنَّ قرابة آدم كانت مع الموجودات الأُخرى التي كانت تعاصره، وكانت لآدم قرابة نسبية وسببية مع هؤلاء على ضوء مبدأ التبدل والتكامل).

ياللعجب! ان هؤلاء يفسّرون الآية حسبما تشتهي أنفسهم من دون الأخذ بنظر الإعتبار كلماتها. حتى أنهم لم يسعوا ليعرفوا هل أنَّ الآية تتحدث عن خلق آدم أم عن خلق البشر الذين جاءوا بعده؟

تقول الآية: «خلق من الماء بشراً».

طبيعي ان الآية لا تتحدث عن خلق آدم ليتم طرح مسألة قرابته مع التراب أو مع موجودات عصره، إذ أنها تتحدث عن خلق الذين ظهروا بعد آدم، أي الذين يخلقون عن طريق النطفة. ولهذا الغرض يستخدم تعبير «خلق من الماء».

ومما لاشك فيه ان الإنسان عند ما يُخلق تكون له روابط نَسَبيّة، وتصبح له بعد ذلك قرابة سببية مع البشر. والآية هي في مقام بيان المسألة التالية وهي ان البشر (وليس فرداً معيناً) لهم قرابة نسبية وسببية بعضهم مع البعض الآخر. إضافة الى ذلك، إذا كانت الآية خاصة بالإنسان الأول، فإنَّ مرحلة النسب والصهر تأتي وراء مرحلة الخلق وغير ملازمة لها كما يدّعي هؤلاء.

والكلام الوحيد الذي يمكن قوله حول مثل هذه الإستنتاجات والإستنباطات هو أنها لن تستطيع أن تكون سوى حكم مسبق حول آيات كتاب الله المجيد.

وحول الآية ١٤ من سورة نوح «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطواراً» يقول أنصار نظرية التكامل: (إنَّ ادعاء المفسّرين على أنَّ هذه الآية تختص بالمراحل الجنينية للإنسان ليس صحيحاً، لأنَّ «الأطوار» في اللغة تأتي بمعنى «تجاوز كل حدٍّ معين ومن ثم الإكتمال» وهذا المفهوم لا ينطبق مع المراحل الجنينية للإنسان التي تكون كل مرحلة منها غير كاملة وغير كافية لبقاء الحياة). ثم يضيفون قائلين: (وهذه الآية هي في مقام توضيح الآية ١٣ من نفس السورة: «مالَكُمْ لا تَرجونَ للّهِ وقاراً»، أي أنَّ القرآن يريد أنْ يقول ان الله ينتقد الذين لا يؤمنون بقوته، و يعتبرون آثار صنعه متأتية عن طريق الصدفة وهي بعيدة عن المتانة والوقار. ولرد مثل هذا الأسلوب من التفكير فان الله سبحانه وتعالى يورد بيان ذلك في الحقيقة التدريجية والتطويرية للإنسان كما هو مذكور في الآية ١٤).

هناك إشكالان على هذا القول: أولها: اننا لو قبلنا تفسير هؤلاء «للطور»، فإنَّ مراحل الخلقة التدريجية للإنسان تكون غير كاملة، بالضبط مثلما لا تكون المراحل الجنينية كاملة بل وغير كافية لدوام الحياة،

لأنها لو كانت كاملة لما كانت هناك حاجة للتكامل والوصول الى الحد النهائي، أي بلوغ الإنسانية.

أما الإشكال الثاني هو انه لتقبيح أسلوب تفكير الأشخاص الذين يعتبرون صنع الله صدفة وبعيداً عن المتانة والوقار، فإنَّ تذكر المراحل الجنينية وعجائبها إنْ لم تكن أكثر تأثيراً من ما يسمى بالمراحل التدريجية للخلقة، فانها ليست أقل منها. إذنْ فما الذي يحتِّم علينا عدم حمل كلمة «الأطوار» على المراحل الجنينية دون حملها على المراحل التدريجية لخلق الإنسان؟

وهنا لا بُدَّ من الإشارة الى الملاحظة التالية وهي أنَّ أنصار نظرية التكامل تماهلوا بهذا الصدد أيضاً، ولم يفكروا في مراجعة التفاسير ليلاحظوا كيف ان المفسرين اعتبروا خلق آدم من التراب ومراحل الطفولة والشباب والعجز والضعف والقوة مطابقة لهذه الآية بالضبط مثل المراحل الجنينية. وهذه أُمور تستطيع أنْ تكون مؤثرة لرد وتقبيح أُسلوب التفكير المادي، ولفت أنظار الناس الى قدرة الله وصنعه.

إنَّ أنصار نظرية التكامل يفسِّرون عبارة «**صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ**» التي وردت في الآيات ٢٦، ٢٨، ٣٣ من سورة الحجر بالطين العفن والقابل للتغيير، و يستنتجون: (بأنَّ الطين المذكور يشبه الطين العفن في المستنقعات. ولما كان علماء المحيط والكيمياء يعتبرون محيط الحياة البدائية مثل المياه السابقة لسطح الأرض، لذلك فإنَّ هذا الإنسان ــ وفقاً لهذه الآيات ــ قد ظهر من المستنقعات بهيئة كائن حي يتواجد عادةً في مثل هذه الأماكن، وقد تبدَّل بعد ملايين السنين الى إنسان عبر تكامله التدريجي).

لقد ذكرنا مسبقاً معنى «**صلصال من حمأ مسنون**» وقلنا إنَّ المنجد يقول: (سنّ الطين: عمله فخاراً)، لكنَّ أنصار نظرية التكامل لم يأخذوا بنظر الإعتبار سوى كلمة (المتغيِّر) في معنى الصلصال التي يذكرها الراغب في المفردات. وانهم ومن دون الأخذ بنظر الإعتبار «المعنى» الذي يذكره المنجد، يستنتجون وفقاً لمدَّعاهم، في حين اننا لو أخذنا بنظر الإعتبار ماجاء في المنجد، أي عبارة (عمله فخاراً) لاتضح لدينا ان خلق الإنسان من الطين ــ بموجب هذه الآيات ــ كان يحتاج الى العمل الذي يتم في صناعة الفخار (أي تغيير الطين وصبُّه في قوالب، ومن ثم تجفيفه) وان مثل هذا الأمر لا ينطبق ــ بتاتاً ــ مع ادعاء هؤلاء.

إضافة الى ذلك، إذا كان الإنسان قد خُلِقَ عن طريق موجودات متعددة، كان أصلها كائناً حياً يعيش في المستنقعات، فيجب أنْ لاينسب الله ــ بشكل مباشر ــ خلقة الإنسان الى «**صلصال من حمأ مسنون**». فهذا خلاف لظاهر الآية، وليس لصراحة الآية.

ماهي النفس الواحدة؟

إنَّ الآيات التي ورد فيها تعبير «النفس

الواحدة» والتي تقول إنَّ الله سبحانه وتعالى خلقنا من نفس واحدة، تعتبر من وجهة نظر أنصار نظرية التكامل دليلاً واضحاً على أن الإنسان قد خُلِقَ من الكائن الحي الذي كان يعيش في المستنقعات، فيما يرجع أصل جميع الموجودات الحية بما فيها الإنسان الى ذلك الكائن. انهم يرفضون تفسير المفسِّرين الذين يرون تطابق «النفس الواحدة» مع آدم، و يقولون: (إنَّ هذا التعبير ليس صحيحاً، إذ انَّ آدم لم يكن أول بشر، بل أُصطفي من بين البشر الذين كانوا موجودين) ثم يضيفون قائلين: (إضافة الى ذلك ان الإنسان والموجودات الأُخرى خلقوا في الوهلة الأولى من التراب والطين، وليس من آدم).

هذا الإستنتاج لن يكون صحيحاً إلاّ اذا كان استنتاج أنصار نظرية التكامل في البحوث الماضية قطعياً، أي انَّ آدم لم يكن أول بشر، بل أُصطفي من بين البشر الذين كانوا موجودين من قبل، في حين اننا أثبتنا خلاف ذلك.

إذنْ، ليس هناك شك في أن تفسير العلماء هو تفسير صائب، وان «النفس الواحدة» هي بمعنى «آدم» وليس موجوداً آخر. مع العلم أنَّ أنصار نظرية التكامل لم يلتفتوا أيضاً الى الملاحظة التالية وهي أن الله عند ما يقول بأنَّ الإنسان خُلِقَ في الوهلة الاولى من التراب والطين، فهذا يعني أن بقية أفراد البشر الذين هم من نسله قد خُلِقوا بدورهم من التراب والطين.

وطبيعي ان آدم (الذي يعتبر بقية أفراد البشر من نسله) حين يكون مخلوقاً من التراب والطين، آنئذ يمكن القول ببساطة إنَّ البشر خلقوا من التراب والطين، بالضبط مثلما يمكن القول حول سجادة مصنوعة من صوف الأغنام، بأنَّ هذه السجادة مصنوعة من التراب، ذلك أنَّ صوف الأغنام، ونتيجة لتغذية الأغنام من المواد التي تنبت في الأرض يرجع في الأصل الى التراب.

و يقول أنصار نظرية التكامل:

(إنَّ خلق الإنسان والموجودات الأُخرى بدأ ـ إستناداً الى ما يقوله القرآن ـ من التراب والطين وليس من آدم. في حين أنَّ القرآن لوكان له تصريح آخر في هذا الصدد، فانه يخص الإنسان فقط «وبدأ خلق الإنسان من طين» وليس الموجودات الأُخرى).

والسؤال المطروح هو: من أين جاء هؤلاء بهذا القول حول الموجودات الأخرى؟! حتى أنَّ ادعاءهم القائل بأنَّ الخلق بدأ من التراب والطين وليس من آدم هو نوع من التناقض لأنهم يقولون ـ إستناداً الى الآية ٥٨ من سورة مريم ـ: (مثل آدم كمثل نوح وابراهيم ـ عليها السلام ـ حيث كان شخصاً معيّناً حظي الأنبياء من نسلهم جميعاً بالنعم الإلهية) أي انَّ آدم كان واحداً من أفراد البشر مثل نوح وابراهيم، وإنَّ نوحاً وابراهيم وسائر الأنبياء(ع) هم من نسله.

إذنْ كيف أستطاع هؤلاء الإدعاء بأنَّ القرآن ينص على أنَّ الإنسان ليس من آدم؟

و ماهو الإشكال إذا قلنا إنَّ الإنسان هو من التراب والطين، ومن آدم كذلك؟

وما هو الإشكال أيضاً إذا كان آدم من التراب والطين، وكان الإنسان من نسل آدم، وقلنا في النتيجة إنَّ الإنسان خلق من التراب والطين، وهو من نسل آدم؟

* * *

إنَّ أنصار نظرية التكامل يعبّرون عن كلمة «لازب» الواردة في الآية ١١ من سورة الصافات «... **إنّا خَلَقْناهُمْ من طينٍ لازِبٍ**» بالشيء اللزج والشبيه بالحشائش التي تستقر في قعر البحار، وان الكائنات الحية الأولى قد وجدت من هذه الأماكن. ولذا فهذه الآية دليل على أنَّ الإنسان هو من نسل مثل هذه الموجودات.

إنَّ كلمة «لازب» تعني اللزوجة. والآن لماذا لانعزو انتخاب هذا الطين الى ان صنع جسم الإنسان يحتاج الى طين لزج، لكي لايتفكك[1].

* * *

اما بالنسبة لآية: «**وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ سُلالةٍ مِنْ طينٍ**» فيقول أنصار نظرية التكامل: (إنَّ هذه الآية تتطابق مع الإكتشافات العلمية والتي لا تظهر بموجبها الاحياء من التراكيب الترابية على وجه السرعة، بل مضت ملايين السنين حتى ظهرت في المياه القليلة العمق أجسام مائية (كاربونية)، تبدّلت فيما بعد الى موادحية وفيروسات، ومن ثم الى موجودات حية، إذْ أنَّ تعبير «**سلالة من طين**» يبيّن حصول تغيُّرات في التراب، و بالتالي ظهور الإنسان. وهذه التغيُّرات لا تستطيع أنْ تكون سوى هذه المراحل التي ثبتت صحتها في التجارب العملية).

نحن نتفق مع هؤلاء حول مسألة حصول تغييرات في التراب قبل خلق الإنسان، ولكن من أين يعرف هؤلاء أنَّ هذا الأمر استغرق ملايين السنين؟ إضافة الى ذلك يبدوأن هذه الآية تنسب خلق الإنسان الى «**سلالة من طين**» مباشرة، وان حمله على أنَّ الطين تبدَّل الى أجسام مائية، ثُمَّ الى مادة حية وفيروسات، و بالتالي الى موجودات حية من جملتها الإنسان يحتاج الى عناء كبير.

وفيما يتعلق بالآية ٩٨ من سورة الأنعام: «**وهو الذي أنشأكُمْ من نَفْسٍ واحدة فَمُسْتَقَرٌّ ومُستَوْدَعٌ...**» فإنَّ أنصار نظرية التكامل يتحدون المفسّرين و يقولون: (لما كانت «النفس الواحدة» تدل على الوحدة، فإنها لا تقبل التطابق مع انسان معين، لأنه لا يمكن ظهور جيل وأجيال متوالية من شخص واحد).

أما إشكال هذا القول فهو ان المفسرين لم يقولوا ــ قط ــ إنَّ الأجيال ظهرت من آدم فقط، بل انهم واستناداً الى الآيات الأولى من سورة النساء والآية ١٩٨ من سورة

---

١ ــ هذا الكلام يتطابق مع عبارات: «**حمأمسنون**» و «**كالفخار**».

الأنعام، والآية ٦ من سورة الزمر يقولون إنَّ البشر ازدادوا نتيجة لازدواج آدم مع الزوج الذي خلقه الله له.

وهذه الآيات ترى أنَّ «النفس الواحدة» والزوج الذي خلقه الله لها هما منشأ ظهور البشر. على سبيل المثال نورد الآية الشريفة الأولى من سورة النساء: «**يا أيها الناسُ اتّقوا رَبَّكُمُ الذي خَلقكُمْ من نَفْسٍ واحِدةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وَبَثَّ منها رِجالاً كثيراً ونساءً ...**». وبذلك لا تبقى هناك أية شبهة.

وحول الآية (٥) من سورة الحج: «**يا أيها النّاسُ إنْ كُنْتُمْ في ريبٍ من البَعْثِ فإنّا خَلَقناكُمْ من تُرابٍ ثُمَّ من نُطفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ من مُضغةٍ...**» يقول أنصار نظرية التكامل: (إنَّ وجود حرف العطف «ثم» يدل على أنَّ خلق الإنسان جرى تدريجياً، وهذا مالايتباين مع نظرية التكامل) و يضيفون قائلين: (لما كان أول انسان قد ظهر من النطفة، فهذا يعني انه كانت هناك موجودات حية أُخرى قبل الإنسان، و بذلك خُلِقَ الإنسان الأول من نطفتها).

لقد تطرقنا فيما مضى الى «ثم»، أما بالنسبة للجزء الأخير من كلام هؤلاء، فنقول: أولاً: إنَّ هذه الآية الشريفة ليست لها مثل هذه الدلالة.

ثانياً: يتضح لنا من خلال الأخذ بنظر الإعتبار الآية ٨ من سورة السجدة: «**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ من ماءٍ مَهينٍ**» بأنَّ رأي القرآن الكريم يتباين مع الرأي المذكور، لأنَّ نسل الإنسان هو وحده الذي خُلِقَ من النطفة، وليس الإنسان الأول. ومثلما قلنا مسبقاً، فإنَّ الإنسان الأول واستناداً الى الآية ٧ من سورة السجدة «**... وبدأ خَلْقَ الإنْسانِ مِنْ طينٍ**» قد خُلِقَ من الطين لا من النطفة.

وفيما يتعلق بالآيات ١٢ ــ ١٤ من سورة المؤمنون: «**ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخلقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً...**» فإنَّ استنتاجات أنصار نظرية التكامل من هذه الآيات ليست صحيحة، إذْ انهم فسّروها بشكل تتطابق فيه مع نظرية التكامل. فهم يقولون إنَّ المقصود من النطفة هنا هو الشيء الذي تظهر منه جميع الموجودات الحية ولا يختص بنطفة الإنسان، و بالنتيجة فانَّ النطفة هي منشأ حياة الموجودات الحية من جملتها الإنسان، اما «القرار المكين» فيعني المكان الذي تستقر فيه نطفة الحيوانات اللبونة، و بيض الحيوانات البَيوض، أي غير اللبونة.

ونحن نلفت أنظار هؤلاء الى أنَّ هذه الآيات تتحدث عن كيفية خلق الإنسان .فقط «**لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**» ولاشأن لها بأقوامه وأقربائه. لذلك فمن الأفضل لهم أنْ يعيدوا النظر في آرائهم ازاء هذه الآيات، لأنَّ مثل هذا الإستنتاج من آيات القرآن الكريم هو أوضح نموذج للحكم المسبق والتفسير بالرأي اللذين تتم مشاهدتها

كثيراً في تحقيقات مؤلف الكتاب.

أما بالنسبة للآية الثانية من سورة العلق «**خلق الإنسان من علق**» فإنَّ أنصار نظرية التكامل يتصورون بأنَّ هذه الكلمة تبيِّن الإرتباط والعلاقة بشيء واحد أوعدة أشياء. ثم يستنتجون بأنَّ تلك الكلمة إنَّما هي إشارة الى العلاقة والإرتباط بين الإنسان والموجودات السابقة. فهم يعتقدون ان تعبير «**العلقة**» في الآيات الأُخرى مثل الآية (١٤) من سورة المؤمنون والآية (٥) من سورة الحج والآية (٣٨) من سورة القيامة، تبيِّن نفس المعنى.

أما خطأهم فيكمن في أنهم أخذوا كلمة (العُلقة) بضم العين، وفهموا منها معنى الإرتباط والعلاقة، في حين أن اللغويين يقولون إنَّ (العلق) جمع (علقة) يعني الدم، وهذا ماقاله المفسِّرون أيضاً، وهو إشارة الى إحدى المراحل التكاملية في الجنين. وتعبير (العلقة) الوارد في الآيات الأخرى مع (النطفة) و (المضغة) و (سائر المراحل التكاملية للجنين) يؤيد رأي المفسرين.

وهنا أرى من الضرورة مكان الإلتفات الى أنَّ كلمتي «**العَلقة**» بفتح العين و«**العُلقة**» بضم العين لهما جذر مشترك. وكما يقول أهل اللغة، فإنَّ العلقة سُمِّيت بهذا الإسم من حيث الإرتباط أو اللزوجة الموجودة فيها. والمهم هو لماذا يجب غض النظر عن المعنى الظاهري لكلمة «العلقة» في الآية التي هي بدورها مرحلة تتوسط مرحلتي (النطفة) و (المضغة) وسميت بهذا الإسم بسبب انعقادها وحالتها اللزجة؟ ولماذا يتم السعي بتكلُّف للإستفادة من هذه الكلمة لغرض حكم مسبق واثبات الإتصال بين الإنسان والحيوان عن هذا الطريق؟.

إنَّ التعمق في مفهوم (الإتصال) ومقارنته بـ (الإرتباط) يبيِّن عدم جدوى مثل هذه المحاولات.

وبالنسبة للآية (٥٩) من سورة آل عمران «**إنَّ مَثَلَ عيسى عند الله كمثلِ آدمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ**» فقد أعطينا بعض التوضيحات حولها في موضوع الإستنتاج من الآيات. ومع انها تبدو كافية، لكن وبهدف أنْ يكون استنتاجنا من الآيات كاملاً، فإننا نعطي توضيحات أُخرى.

ومن الملاحظات الأُخرى حول هذه الآية والتي رأينا من اللازم بذل الدقة فيها هي انه وردت في الجزء الأخير من الآية العبارة التالية «**ثم قال له كن فيكون**». فاما أن نعتبر هذا الجزء من الآية خاصاً بـ (آدم) قبل تكوّنه من التراب، أو بعد تكوّنه من هذه المادة. لكنَّ الإحتمال الأول لن يستطيع أنْ يكون صحيحاً، إذْ أنَّ ظاهر الآية هو أنَّ الخلقة والتكون تمتا على مرحلتين، وقد أُستعملت كلمة «ثم» لعطف المرحلة الأُولى على الثانية.

وعلى هذا الأساس فان عبارة «**كن فيكون**» يجب أنْ تكون خاصة بمرحلة جاءت بعد خلق آدم من التراب. من جهة ثانية

هناك آيات أُخرى تنص على أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم من التراب أو الطين، ثم نفخ فيه من روحه «**ونفخت فيه من روحي**».

وهذا ما يوضح لنا أنَّ فعل الأمر (كن) يرجع الى مرحلة نفخ الروح، أي بعد أنْ تمَّ صنع هيكلٍ ترابي لآدم، فإنَّ الله جلّ وعلا غيَّره الى موجود حي (انساني). لكن هذا التبرير لايتفق مع نظرية التكامل، ففي التكامل التدريجي عندما يتبدل التراب ــ بالتدريج ــ الى انسان، فإنَّ بعض المراحل تتوسط المرحلة الترابية والمرحلة الإنسانية، وهي (الطين، المواد الكاربونية، المواد الحية والفيروسات وبالتالي الموجودات الحية المشخصة).

فإذا كانت هذه الآية مطابقة لنظرية التكامل، فبأي المراحل يتعلق فعل الأمر (كن)؟ فالآية لا تذكر سوى مرحلتين «**خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**» بالضبط مثلما ورد في كتب التفسير، في حين ترى نظرية التكامل وجود مراحل كثيرة، وهذا ليس معقولاً أبداً.

و يستشكل أنصار نظرية التكامل على هذا الموضوع قائلين: (لو ألغينا هذا التشبيه في حالة عدم خلق آدم من التراب، فيجب كذلك أنْ يُلغى حتى في حالة خلقه من هذه المادة، لأنه في تلك الحالة لم يكن له أم وان إنساناً مثل عيسى (ع) الذي كان له أم ولم يكن له أب لايمكن مطلقاً تشبيه بإنسان ليس له أب ولا أم).

و يكمن الإشكال في أن هؤلاء يتصورون أنَّ جميع خصائص المشبَّه والمشبَّه به في عملية التشبيه يجب أن تكون واحدة، في حين أنَّ جهة التشبيه هي وحدها التي يجب أن تكون واحدة في هذين الإثنين وإنَّ آدم وعيسى (عليهما السلام) باعتبارهما متشابهين من حيث افتقارهما الى أب، فإنَّ تشبيههما من هذه الناحية يخلو من الإشكال، حتى وإنْ كان أحد هما له أم أو لم يكن للإثنين أم أو كان لهما أم...

النتيجة الكلية الحاصلة من البحث:

اما النتيجة الكلية التي نحصل عليها من بحثنا هذا فهو ان جميع الآيات التي تطرقنا اليها لا تشير مطلقاً الى خلق الإنسان على مراحل، أي بصورة تدريجية كما يزعم أنصار نظرية التكامل. ويجب الإلتفات الى المسألة التالية وهي أنَّ بعض تلك الآيات إذا دُرِسَتْ من دون الأخذ بنظر الإعتبار سائر الآيات الأُخرى الخاصة بخلق الإنسان، فانها تكون قابلة للحمل على هذه النظرية، لكننا قلنا في استنتاجنا منها انه لوتمَّت مقارنتها بسائر الآيات الأخرى بل ووضعت الى جانبها فلن تبقى أية دلالة على هذا الموضوع بالنسبة لهؤلاء في حين ان التعمق في مجموع الآيات المدروسة يبيِّن لنا بوضوح ان مفهوم القرآن الكريم حول خلق الإنسان، هو ماذهب اليه المفسرون في هذا الصدد، وهذا ما تحصل عليه الأذهان الطاهرة عند تعمقها في

الآية (٥٩) من سورة آل عمران. أما السبب في الإستنتاجات الخاطئة لأنصار نظرية التكامل من هذه الآية الشريفة فيكمن في أن هؤلاء ونتيجة لتأثيرهم بنظرية التكامل التدريجي، لجأوا الى الحكم المسبق.

في الختام نسأل الله أن يوفقنا جميعاً لإدراك المعارف القرآنية السامية كما هي عليه، و يصوننا من أي حكم مسبق على هذا الكتاب الإلَهي، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ●

ترجمة: فلاح شيرواني